

بمناسبة الذكرى الـ 150 على ميلاد لينين

الانعطاف الاستراتيجي يتطلب مناورة تكتيكية مناسبة

السياسة الاقتصادية الجديدة " النيب " مثالا

د. صالح ياسر

من المفيد الإشارة في البداية الى رؤية الماركسية لأشكال النضال وكيفية اختيار التكتيكات الملموسة طبقا للوضع الملموس. ويميز لينين بين الماركسية والمرجعيات الفكرية – السياسية الأخرى في أنها - أي الماركسية - " لا تربط الحركة بأي شكل وحيد ومحدد للكفاح، فهي تسلّم بأساليب النضال الأكثر تنوعا، وهي لا تخرعها، بل تكتفي بتعميمها وتنظيمها وجعل الأشكال النضالية للطبقات الثورية، التي تنبثق عضويا من خلال الحركة ذاتها، اشكالا واعية"¹.

ويعني ذلك أن الماركسية:

1. **ترفض** الصيغ المجردة التي لا تنبع من الواقع أو التي تريد أن تقفز فوقه.
2. **تستنبط** أشكال النضال والتكتيكات الملموسة انطلاقا من حركة الجماهير وطبيعة نضالاتها ومستوى وعيها، التي تنبثق عنها طرائق جديدة دائما، متنوعة أكثر فأكثر، للدفاع والهجوم كلما تطورت الحركة الجماهيرية وتقدم وعيها واستفحلت الازمات الاقتصادية – الاجتماعية والسياسية.

ولهذا السبب يؤكد لينين على أن " الماركسية لا ترفض بصورة مطلقة شكل نضالي ما. وهي لا تعتزم في أي حال من الأحوال أن تقتصر على الأشكال النضالية الممكنة والموجودة في لحظة معينة، وهي تعترف بأن تغييرا للوضع الاجتماعي سيستتبع حتى ظهور أشكال نضالية جديدة لا يعرفها مناضلو الفترة المعنية بعد. ومن هذه الناحية تتعلم الماركسية، إذا صح التعبير، من المدرسة العملية للجماهير، وهي أبعد من أن تدعي إعطاء الدروس للجماهير بعرضها عليها أشكالاً نضالية تصورها صانعو الأجهزة في غرف عملهم"².

وإذ تؤكد الماركسية على هذه المبادئ المنهجية المتعلقة بأشكال النضال وتكتيكاته الملموسة، فإنها تؤكد في الوقت ذاته على بحث قضية أشكال النضال الملموسة في إطارها التاريخي الملموس. وبهذا الصدد يؤكد لينين على أن طرح " هذه المسألة خارج الظروف التاريخية الحسية، يعني جهل الف باء المادية الديالكتيكية إن محاولة الرد بنعم أو لا حين تطرح مسألة تقييم وسيلة معينة للنضال دون أن تبحث بالتفصيل الظروف الحسية للحركة في درجة التطور التي بلغت، يعني التخلي تماما عن الصعيد الماركسي"³.

في ملاحظة لمحة اشار الفيلسوف الماركسي الفرنسي المعروف الراحل (لوي التوسير) الى اهمية نصوص لينين قائلا: " إن الشيء الذي لا يعوض في نصوص لينين هو تحليل هيكل وتركيب وضع أو ظرف ما، وعمليات تركيز تناقضاته وتغير مواضعها، ووحدة هذه التناقضات المنافية للمألوف. وكل هذه الظواهر هي بذاتها كيان تلك (اللحظة الراهنة) التي يحدث العمل السياسي فيها تحولا"⁴.

ونقدم هنا نصا للينين بعنوان " الهجوم والحصار " وهو تقرير عن (السياسة الاقتصادية الجديدة) التي اطلق عليها في حينه اختصارا " النيب" (N.E.P)، وهذا التقرير قدمه لينين الى الاجتماع التشاوري

¹ لينين، الاعمال الكاملة، المجلد 9، ص 215.

² المصدر السابق.

³ المصدر السابق، ص 216.

⁴ لوي التوسير، من اجل ماركس، ص 181.

السابع لمنظمة الحزب في مقاطعة موسكو. بادئ ذي بدء استبعد لينين الجوانب القانونية والاحصائية للسياسة الاقتصادية الجديدة، وركز على عرضها من زاوية واحدة فقط هي أنها إنعطاف في الاستراتيجية الثورية للسلطة السوفيتية، وبالتالي فإن الملاحظات التالية تشكل تطبيقاً لثلاثة جوانب في المادية الجدلية:

1. علم الاطوار العامة لتطور تشكيل اجتماعي ما، وتحليل هيكله النموذجي في طور معين.

2. علم تحرك التناقضات في طور معين وتطورها غير المتكافئ، أي إبراز " عقدة المسألة " و تغير مكان هذه العقدة التي تحدد الانتقال الى مرحلة جديدة في الطور الواحد – كأن يتحول تناقض ثانوي الى تناقض رئيسي – أو العكس، تحول جانب ثانوي من التناقض الى جانب رئيسي أو بالعكس.

3. علم تكييف الممارسة وفق متطلبات مرحلة معينة من طور معين، أو تبعاً لضرورة تخطي هذه المرحلة بسبب عبور عتبة ما أو تحول تناقض بسيط غير تناحري الى تناقض عدائي. إنه العلم الذي يسمح – على ضوء التناقض الرئيسي للطور والتناقضات الرئيسية والثانوية للمرحلة الراهنة بجانبها الرئيسي وجوانبها الثانوية- بتحديد المهمة العملية الرئيسية والشعار الرئيسي، والمهام العلنية والشعارات الثانوية المشتقة منها. هذا العلم الاخير يسمى الاستراتيجية والتكتيك.

منعا لأي التباس لم يميز (لينين) صراحة في تقريره المشار اليه اعلاه بين اصطلاح " التكتيك " و " الاستراتيجية " من حيث التعريف. ومع ذلك فإن هذا التمييز قائم عملاً في سياق تدليله. وإذا اعتمدنا مفاهيم المادية التاريخية والقضايا التي جرت الإشارة إليها في النقاط الثلاثة التالية أمكننا القول، من الناحية المبدئية، أن الاستراتيجية تعرف الطبيعة العامة للطور (والمقصود هنا طور الانتقال من اسلوب الانتاج الرأسمالي الى اسلوب الانتاج الاشتراكي) وتحديد الرئيسة ومراحل الكبرى. في حين أن التكتيك يحدد كل مرحلة من مراحل الطور بتناقضها الرئيسي، كما يحدد في كل خطوة من خطوات المرحلة الجانب الرئيسي من التناقض الرئيسي أو التناقض الثانوي الذي يحتل مؤقتاً مركزاً أساسياً.

وهذا التمييز يتيح القول بأن الاستراتيجية تسمح بتحديد الشعار الرئيسي في الطور كله (مثل ذلك ديكتاتورية البروليتاريا) والشعار الرئيسي لكل مرحلة (مثل ذلك في ظل نظام شيوعية الحرب : " تجريد من جردوا غيرهم من الملكية " و " التحالف العسكري بين البروليتاريا والفلاحين "، وفي ظل نظام (النيب) : " تحالف البروليتاريا مع الفلاحين على اساس السوق بمساعدة جزء من البرجوازية ").

في حين أن التكتيك هو الذي يسمح بتحديد الشعار المتفق مع الجانب الرئيسي حالياً للتناقض الرئيسي للمرحلة، أو مع تناقض ثانوي في الاوضاع المعقدة من تناقضات المرحلة يصبح في مناسبة معينة تناقضا رئيسياً.

يحاول (لينين) إفهام المستمعين إليه بالفارق الجوهرى بين الانتقال من تكتيك لآخر داخل استراتيجية واحدة، وبين الانتقال من استراتيجية لآخرى. وفي هذا الصدد يقول (لينين) الآن، وبعد الاخذ بنظام " النيب " فإن إجراءات التهادن المتخذة في الفترة من مارس عام 1918 الى صيف العام ذاته – والمتمثلة بالابطاء في معدل نزع الملكيات والتأميمات، والتنازلات للبرجوازية – كانت ذات طابع تكتيكي "في استراتيجية واحدة للانتقال مباشرة الى الاشتراكية"، في حين أن منعطف ربيع سنة 1921 ذو طابع استراتيجي.

في ذلك الوقت كان التصور العام لطور الانتقال في أبسط صورته بالقياس الى التقسيم الى مراحل الذي كان مقدرًا له أن يظهر على ضوء " النيب " : فلم يكن الطور يتضمن الا مرحلة واحدة – من هذه الزاوية

ايضا- ولكن داخل هذه الاستراتيجية الواحدة ظهرت تكتيكات عديدة مقابلة لتغير مكان التناقض الرئيسي والتناقضات الثانوية.

وبعيدا عن العموميات تحتاج هذه القضايا الى مزيد من التفصيل⁵.

طوال الفترة 1917-1921 المقسمة - عبر امتداداتها - الى ثلاث مراحل : التأميمات، الاستقرار، شيوعية الحرب، اتضح انها مرحلة واحدة بالقياس الى " النيب" ظل التناقض الرئيسي كما هو، ممثلا بالتناقض بين البرجوازية والاقتصاد الرأسمالي من جهة، وبين البروليتاريا صاحبة سلطة الدولة والاقتصاد الاشتراكي من جهة أخرى. إتخذ هذا الصراع أشكالاً عديدة : الصراع بين الدولة البروليتارية، والبرجوازية الروسية، الصراع بين الدولة البروليتارية والبرجوازية العالمية. لقد تغير موقع الجانب الرئيسي للتناقض، وهذا التغير في الموقع هو محور التناقض الثانوي في مارس 1918. ولكن حتى عام 1921 فإن التغيرات في هيكل التناقضات لا تؤثر في التحديد الجوهرى للمرحلة، وهي المواجهة المباشرة بين العناصر الرأسمالية والعناصر الاشتراكية.

غير انه وفي عام 1921، أصبح التناقض الرئيسي ثانويا، وحل محله تناقض رئيسي جديد. فلا يعود التناقض الرئيسي قائما بين نمو الاشكال الاشتراكية للإقتصاد، ونمو الاشكال الرأسمالية، بل يصبح قائما بين نمو القوى المنتجة لكافة الاشكال الاقتصادية، و بين عدم نمو القوى المنتجة. وبهذا الصدد يشير (لينين) في التقرير المشار اليه سابقا (ص 92) الى ما يلي: " لا بد أن نعيد الى الوجود نظاما رشيدا (لم يعد لينين يقول " اشتراكية " للعلاقات الاقتصادية، وان نحيا الاقتصاد الفلاحي الصغير وان نصلح ونأخذ بيد الصناعة الكبيرة. وبدون هذا لن نستطيع الخروج من الازمة، وليس ثمة مخرج آخر ". هذا هو التغيير الاستراتيجي الجذري، أي الانتقال من مرحلة الى أخرى.

نعود الآن الى التغيير التكتيكي الذي حدث في مارس 1918 والذي يستشهد به لينين كمثال مناقض. ماذا يعادل هذا التعديل السياسي في هيكل التكوين الاجتماعي ؟ إن هذا التعديل يعادل : أولا : تعديل في شكل التناقض الرئيسي (الذي ينتقل من تعبير حربي عن التناقض الى تعبير اقتصادي، ولكنه يظل مجابهة مباشرة بين الطبقتين : البروليتاريا والبرجوازية).

ثانيا: تغير في وضع جوانب التناقض الرئيسي. فالجانب الثانوي القديم يصبح جانبا رئيسيا والعكس بالعكس. لقد كان الوجه الرئيسي للتناقض بين المناطق الواقعة تحت السيطرة الاقتصادية البرجوازية والمناطق الواقعة تحت السيطرة الاقتصادية للبروليتاريا-أي القطاع الاشتراكي أو بالأحرى القطاع المملوك للدولة والقطاع الرأسمالي - هو القطاع الرأسمالي: كان الهدف الجوهري هو طرد قوى البرجوازية من جزء من قاعدتهم، وكان هذا مرتبطا بالشكل الذي يتخذه التناقض، أي الشكل الاقتصادي والحربي معا.

وابتداء من مارس 1918، أصبح الوجه الرئيسي للتناقض هو القطاع المؤمم. منذ هذه اللحظة تصبح السيطرة على ما تم تأميمه، ومراقبته وتنظيمه بمثابة الشرط الذي لا غنى عنه لكل تقدم لاحق لعملية الهجوم. لقد تغيرت الآن عقدة المسألة، ولكن المسألة ظلت كما هي (ما الذي سينتصر، اهو شكل الاقتصاد الاشتراكي أم شكل الاقتصاد الرأسمالي ؟). ليس هناك سوى تغيير في وضع الوجه الرئيسي. في هذا الصدد يشير (لينين) الى ما يلي : " كنا نقول أن مهمتنا من الآن فصاعدا ليس تجريد من جردوا غيرهم بقدر ما هي إنجاز عملية الجرد ".

⁵ لمزيد من التفاصيل قارن: كارتوجين، الخبرة التاريخية للحزب الشيوعي في تنفيذ السياسة الاقتصادية الجديدة (موسكو، دار التقدم 1976)، باللغة العربية.

لقد تغير الوجهة الرئيسي للتناقض واصبح الشعار الرئيسي شعارا جديدا. لم يعد هو " تجريد من جردوا غيرهم " بل "إنجاز عملية الجرد " ذاتها.

وقد حلل (لينين) التغيير في شكل التناقض الرئيسي في كتابه " المهام العاجلة للسلطة السوفيتية " (مارس-ابريل 1918) حين كتب قائلا: "إن تطور الحزب البلشفي وهو الحزب الحاكم اليوم في روسيا، يبين بوضوح خاص ماهية المنعطف التاريخي الذي نجتازه والذي يميز اللحظة السياسية الراهنة، وهو منعطف يتطلب اتجاها جديدا للسلطة السوفيتية، أي طريقة جديدة في طرح القضايا الجديدة (.....) إن المهمة الاولى لكل حزب يعمل للمستقبل هي إقناع غالبية الشعب بصحة برنامجه وتكتيكه. وقد كانت هذه المهمة ماثلة في المقدمة سواء في ظل القيصرية أو في عهد سياسة التصالح (.....) وكانت المهمة الثانية لحزبنا هي الاستيلاء على السلطة السياسية وسحق مقاومة المستغلين (.....) ومهمة سحق مقاومة المستغلين قد انجزت في الجوهر بالفعل في الفترة من 25 اكتوبر 1917 الى فبراير 1918 تقريبا (.....) وهناك مهمة ثالثة هي تنظيم الادارة في روسيا، وهي مهمة واردة الآن في جدول اعمالنا بإعتبارها مهمة عاجلة وحالة ومميزة للخطة الراهنة. وغني عن الذكر أننا وضعنا لأنفسنا هذه المهمة واننا عملنا من اجل حلها منذ غداة 25 اكتوبر 1917. ولكن حتى الآن، طالما أن مقاومة المستغلين كانت تتخذ شكل حرب اهلية معلنة لم يكن من الممكن أن تصبح مهمة الادارة هي المهمة الرئيسية- المهمة المركزية. (....) وانها كذلك اليوم (....) والصعوبة الكبرى التي تتميز بها اللحظة الراهنة هي حسن ادراك خصائص الانتقال من فترة كانت مهمتنا الجوهرية فيها اقناع الشعب وسحق المستغلين عسكريا، الى الفترة الجديدة حيث مهمتنا في الجوهر هي مهمة الادارة ⁶. هكذا كان الشكل الرئيسي (ولكنه ليس الوحيد) من التناقض الرئيسي، سياسيا فعسكريا فإقتصاديا على التوالي.

لقد احدثت "النيب" صدمة نظرية على الصورة برمتها، وحدثت بها نقلة من حيث أن التناقض الرئيسي في هذا الطور (التناقض بين الاقتصاد الاشتراكي والاقتصاد الرأسمالي) يكف عن أن يكون التناقض الرئيسي فعلا لمرحلة معينة (إذ أن التناقض الرئيسي في " النيب "، كما اشرنا سابقا، كان بين نمو وعدم نمو القوى الانتاجية). وما كان يظهر على أنه البرنامج العام للشيوعيين يصبح بالإضافة الى ما تقدم بحكم صدفه غير ضرورية من الآن فصاعدا، استراتيجية المرحلة الاولى (فرض الانتقال المباشر الى البناء الاشتراكي). وبعد شغل مكان الاستراتيجية مؤخرا على هذا النحو، أصبحت المنعطفات السياسية التي تتم على هذا الاساس في مستوى التكتيك – أي أنها تتغير في الشكل وليس في مضمون التناقض الرئيسي. فعلى سبيل المثال اتخذت مجموعة من التناقضات طابعا عدائيا في عام 1921 مما اضطر السلطة السوفيتية الى النظر في إعادة ترتيب القوى الانتاجية على اساس الاساليب الرأسمالية، والإنتاج والتبادل الرأسماليين، ولم يكن هذا الاحتمال مأخوذا في الحسبان عام 1918. هكذا، إذن، أصبح مفهوما كيف أنه، وقد تعذر في تلك الحقبة إعادة النظر في التناقض الرئيسي، فإن التعديلات الواردة على ما كان يبدو أنه من وجه هذا التناقض، قد اعتبرت بمثابة تغييرات حاسمة تفتتح استراتيجية جديدة ومرحلة جديدة في تطور التكوين الاجتماعي القائم.

ويمكن تلخيص جوهر الطرح اللينيني لإشكالية "النيب" وفهمه للتناقضات وترتيبها، وبالتالي تميزه بين الاستراتيجية والتكتيك بالملاحظات التالية:

□ "النيب" مرحلة اصلاحية، مستقلة بذاتها، تعد الشروط الاولى للهجوم الاشتراكي (إعادة القوى الانتاجية الى ما كانت عليه، استخلاص فائض زراعي، تكوين منفذ (سوق) لدى الفلاحين، تجميع بيانات بشأن الاقتصاد السوفيتي).

⁶ لينين، الاعمال الكاملة، المجلد 27، ص 249-250. وعن الجوانب التاريخية للمرحلة الانتقالية قارن: وثائق تاريخية عن مرحلة الانتقال في التجربة السوفيتية. مجموعة وثائق منشورة في مجلة "الطليعة المصرية" خلال سنتي 1969 و 1970.

- **أحد الأشكال التي اتخذها التناقض الرئيسي للنيب هو التناقض بين الزراعة والصناعة** (من الصور الأخرى لنفس التناقض: التناقض بين ما تتطلبه وحدة الصناعة والزراعة وبين العقبات التي تعترض هذه الوحدة، أو التناقض بين تنمية وعدم تنمية كل القوى الانتاجية).
- **الوجه الرئيسي للتناقض هو الزراعة** (يجب عليّ الآن ايها الرفاق أن أقول بضع كلمات بشأن الفرع الرئيسي لإقتصادنا وهو الزراعة)⁷. في حين أنه عند تحليل تطور اسلوب الانتاج الاشتراكي في المدى الطويل، فإن **الوجه الرئيسي للتناقض هو الصناعة** (إن الصناعة الكبيرة هي الدعامة الوحيدة للمجتمع الاشتراكي)⁸.
- **إن عقدة المسألة هي السوق**، كنقطة تقابل الاوجه المختلفة للتناقض، ونقطة التحول رأساً على عقب من ممارسة ترمي الى التغلب على هذا التناقض في الطور موضع البحث.
- **المهام الاساسية في لحظة معينة هي المتطلبات التكتيكية للشكل الذي تتخذه في هذه اللحظة أو تلك عقدة التناقض الرئيسي للطور**. وهذه المتطلبات هي :
 - التحسينات المالية والادبية في احوال صغار الفلاحين الذين يعملون لحسابهم الخاص.
 - التدريب على التجارة.
 - الاستقرار المالي... الخ.

⁷ لينين، في المؤتمر التاسع للسوفييات، الاعمال الكاملة، المجلد 33، ص 161.

⁸ لينين، الاعمال الكاملة، المجلد 33، ص 96.